تم اكتساب عادات بحثية خاطئة يصعب التخلص منها في المنظور القريب

البشير معمرية - استاذ علم النفس
جامعة محمد الأمين دباغين. سطيف - الجزائر
bashirmaamria2015@gmail.com

ورد إليّ السؤال الآتي :

"في نهاية كل عام دراسي جامعي، ومع اقتراب مناقشة المذكرات والرسائل الجامعية، يقع الطلاب في حيص بيص، حين يكتشفون أن نتائج المعالجات الإحصائية، بعضها أو جلها أو كلها، غير دالة إحصائيا. أرجو منكم توجيه الطلبة إلى كيفية التعامل مع هذه الحالة، بطريقة عملية تطبيقية مختصرة.

مع تحياتي وتقديري".

ولكني، يا زميلي الفاضل، لم أقدم طريقة علمية تطبيقية مختصرة، كما طلبت، لقد ذهبت بعيدا، إلى جذور المشكلة، وصعدت معها، مرورا بالجذع والفروع والأغصان والأوراق، لقد تجولت قليلا، وعسى أن تكون الجولة مفيدة. فالعملي يكون مسبوقا بالنظري، يدعمه.

في نهاية كل عام دراسي جامعي، ومع اقتراب مناقشة المذكرات والرسائل الجامعية، يقع الطلاب في حيص بيص، حين يكتشفون أن نتائج المعالجات الإحصائية، بعضها أو جلها أو كلها، غير دالة إحصائيا

ربما تعتقدون أن ممارسة البحث "العلمي" الجامعي، الذي مارسه، ويمارسه الطلاب ابتداء من مرحلة الليسانس، منذ عقود، كانت لها حسنات، وفوائد لمسار البحث العلمي في الجامعة، بعد ذلك، هذا ليس صحيحا أبدا

الممارسات المبكرة للبحث العلمي، أكسبت الطلاب عادات بحثية خاطئة يصعب تغييرها والتخلص منها،

الإجابة.

أثر ممارسة البحث العلمي مبكرا على ممارسته متأخرا.

ربما تعتقدون أن ممارسة البحث "العلمي" الجامعي، الذي مارسه، ويمارسه الطلاب ابتداء من مرحلة الليسانس، منذ عقود، كانت لها حسنات، وفوائد لمسار البحث العلمي في الجامعة، بعد ذلك، هذا ليس صحيحا أبدا، بل العكس هو الصحيح، لقد كانت لها آثار سيئة، ومدمرة للبحث العلمي الجامعي، لأن الممارسات المبكرة للبحث العلمي، أكسبت الطلاب عادات بحثية خاطئة يصعب تغييرها والتخلص منها، واستبدالها بعادات بحثية أخرى صحيحة، تتفق مع خصائص البحث العلمي، كما ينبغي أن يكون. هذه العادات البحثية الخاطئة، ما زالت سائدة إلى اليوم، وأثرت في بحوث الماجستير وفي بحوث الدكتوراه، وما زالت تنمو وتتطور. فهناك الكثير من أطروحات الدكتوراه، يستحيي أي أستاذ يحترم العلم ومناهجه أن يطلق عليها أطروحة دكتوراه. (كما بدأنا نصل).

كان من الحكمة ترك الطالب الجامعي، يكتسب العلم ومناهجه، بروية وهدوء، ولا يمارس البحث العلمي، إلا بعد أن يشتد عوده، وينضج علميا. لكن التوجه الجامعي في بلدنا دعا إلى ممارسة البحث العلمي في مرحلة الليسانس، وشجعه إلى أعلى مستوى، فأدى ذلك إلى الرداءة السائدة اليوم، والتي تتناسخ وتنتشر. كان الأحسن، ألا يمارس هؤلاء البحث العلمي إطلاقا، أو يكون اختياريا، أو تمارسه فئة قليلة منهم وفق شروط محددة وصارمة.

وسياسة التسرع والتسريع، هذه، في اكتساب العلم، نلاحظها، كذلك، في إحداث التخصصات الدقيقة في علم النفس، التي تبدأ في السنة الثالثة من التعليم الجامعي، حين يتم توجيه الطلبة، بعد إنهائهم للجذع المشترك، إلى تخصصات نفسية دقيقة؛ في الإرشاد النفسي، وعلم النفس المدرسي، وعلم نفس التنظيم والعمل، وعلم النفس العيادي وغيرها، فيتخرج الطالب بصفته متخصصا في علم نفس معين، درسه لمدة سنتين في النظام الكلاسيكي، ولمدة سنة واحدة في نظام ل م د. وهذا غير معقول أبدا. (أنجزت مقالا نقديا، بعنوان : رسالة إلى العياديين، ناقشت فيه هذا الوضع. وهو تحت النشر).

قدم القضية وخبرتي بها.

أتذكر أن هذا الاهتمام الساذج، كان سائدا لدى الباحثات (الإناث) خاصة، في مرحلة الليسانس، لاحظته، وتفاعلت معه، منذ التحاقي بالجامعة سنة 1995، فإذا لم تكن الفروق أو الارتباطات، دالة إحصائيا، اعتبرت الواحدة منهن، أن بحثها فاشل، ولا قيمة له، فإذا هي تشعر بالإحباط، وتشعر بالعار، فترتفع لديها مشاعر الاكتئاب، فتجهش بالبكاء، وأحيانا الإصابة بالإغماء.

التحقت بالجامعة، أستاذا مساعدا (بشهادة الماجستير)، فوجدت ساكني الجامعة (الطلاب والأساتذة)، كلهم يبحثون، وكلهم يمارسون الإشراف. وفي البيئة الجامعية، وخارجها أيضا، يتحدثون عن البحث العلمي والإشراف، تباهيا به، أسمع كلاما ونقاشا واحتجاجا وتقييما وفخرا واعتزازا وخزيا وعتابا وسخرية، وانتقادات ومشاجرات، داخل الجامعة وخارجها، كلها حول البحث العلمي، الذي كان ليس علميا إلا في اسمه. كل الطلبة يبحثون بحوثا ميدانية، ولا يسمح بغيرها، وكل الذين يدرّسون يمارسون الإشراف؛ حاملو الدكتوراه، حاملو الماجستير، حاملو الليسانس، عدد الطلبة يفوق بكثير المعيار الملائم لعدد الأساتذة، مما جعل أستاذا واحدا يشرف على عدد كبير من الرسائل في مرحلة الليسانس، وعند امتحان الطالب (مناقشة الرسالة)، تقام حفلات وولائم، وتمنح درجات، وتقديرات، التي تكون محل حديث الجامعيين وغير الجامعيين، تجلب الاعتزاز والرضا، أو تجلب الخزي والغضب، ولا تؤخذ الجوانب المنهجية العلمية بعين الاعتبار، عند تقييم الرسالة، إلا نادرا جدا، فكل ما يؤخذ بعين الاعتبار هو العلاقات والمجاملات، والمحاباة، خاصة وأن معظم هؤلاء، إناث، "رفقا بالقوارير".

خصائص البحوث العلمية الميدانية.

وللبحوث العلمية النفسية الميدانية، فنيات منهجية عملية، يتميز بعضها بالصرامة، ينبغي إتقانها نظريا وممارسة : طرق سحب العينات، إعداد أدوات القياس، وحساب شروط صلاحيتها للاستعمال (الصدق والثبات)، وطريقة تطبيقها، وتصحيح الإجابات عليها، والحصول على الدرجات الخام، والطرق الإحصائية لمعالجة بيانات البحث، وطرق عرض النتائج ومناقشتها، إضافة إلى تحديد مفاهيم البحث، وتعريفها تأسيسيا وإجرائيا، ووضع الأسئلة والفرضيات. والتمكن من كتابة الفصول النظرية ونتائج الدراسات السابقة، وهذه الفنيات، ندر من يتقنها إلى اليوم، في كل مراحل البحث العلمي، أقصد مراحل الليسانس والماجستير أو الماستر والدكتوراه، وهذا الوضع سوف يستمر، ويتطور أكثر، نظرا لغياب ثقافة الإتقان والجودة، وسيادة ثقافة معاكسة لها، مؤيّدة ومدعّمة، ولا تتغير الأمور في المنظور القريب، ولا أحد يلفت الانتباه إلى هذا الوضع، بجدية، مع المتابعة، سواء على مستوى الإدارة، أو على مستوى الأساتذة، الذين لهم المسؤولية المباشرة، على المنهجية العلمية.

ولغياب التمكن والإلمام، والاهتمام بفنيات البحث العلمي، وثقافته، يتحدث الباحثون عن جوانب أخرى، تتعلق غالبا بنتائج البحث ومدى تحقيق الفرضيات من عدمه، والدلالة الإحصائية.

واستبدالها بمعادات بحثية أخرى صحيحة، تتفق مع خصائص البحث العلمي

هناك الكثير من أطروحات الدكتوراه، يستحيي أي أستاذ يحترم العلم ومناهجه أن يطلق عليها أطروحة دكتوراه.

من الحكمة ترك الطالب الجامعي، يكتسب العلم ومناهجه، بروية وهدوء، ولا يمارس البحث العلمي، إلا بعد أن يشتد عوده، وينضج علميا

وسياسة التسرع والتسريع، هذه، في اكتساب العلم، نلاحظها، كذلك، في إحداث التخصصات الدقيقة في علم النفس، التي تبدأ في السنة الثالثة من التعليم الجامعي

التحقت بالجامعة، أستاذا مساعدا (بشهادة الماجستير)، فوجدت ساكني الجامعة (الطلاب والأساتذة)، كلهم يبحثون، وكلهم يمارسون الإشراف

عدد الطلبة يفوق بكثير المعيار الملائم لعدد الأساتذة، مما جعل أستاذا واحدا يشرف على عدد كبير من الرسائل في مرحلة الليسانس

للبحوث العلمية النفسية الميدانية، فنيات منهجية عملية، يتميز بعضها بالصرامة، ينبغي إتقانها نظريا وممارسة

ندر من يتقنها إلى اليوم، في كل مراحل البحث العلمي، أقصد مراحل الليسانس والماجستير أو الماستر والدكتوراه

هذا الوضع سوف يستمر،

العوامل المؤثرة في نتيجة أي بحث علمي نفسي.

إن النتيجة المتوصل إليها في نهاية البحث، أيا كانت هذه النتيجة، لا تأتي من فراغ، من المفروض أنها قامت على خلفية علمية منجزة، تستند إليها، وتسترشد بها، وتضيف إليها، فتنميها، وإرهاصات كثيرة، وإجراءات منهجية عديدة، فالعلم في مساره الإبستمولوجي، يؤثر في بعضه، وينمو من بعضه، وخاصيته الأساسية هي الإضافة والتراكم. وإليكم ما يأتي :

1) إن أول وأعظم ما تتأثر به نتيجة البحث العلمي، هو مضمون الإطار النظري، أي نظرية البحث، ونتائج الدراسات السابقة، الذي ينبغي أن يتناوله الباحث بأسلوب تحليلي نقدي عميق، ليتمكن من معرفة توجهه، ومنه يتوقع النتيجة التي من المحتمل أن يتوصل إليها، فيقوم بصياغة فرضيات البحث، وفقا لذلك. وإذا لم يقم بهذا الجهد العلمي، فلا يتسنى له توقع نتيجة معينة، وإذا توقعها فبطريقة متحيزة، ولذا يصاب بصدمة عندما تخالف نتيجة بحثه توقعه المتحيز.

فإذا كان موضوع البحث، مثلا : "الفروق بين الجنسين في الرضا عن الحياة"، فالباحث هنا مطالب بأن يستعرض بطريقة نقدية ما تم إنجازه سابقا حول الموضوع، فيتعرف على اتجاهات الفروق؛ هل هي لصالح الذكور أو لصالح الإناث، ويتعرف على العينات التي استعملت في تلك البحوث، وأدوات القياس، والأساليب الإحصائية، فيقارن كل ذلك بخصوصيات بحثه، فيكون قد حصل على إلمام جيد بالموضوع، فيسترشد به في صياغة المشكلة والأسئلة والفرضيات، ويكون له توقع واقعي بالنتيجة التي من المحتمل التوصل إليها. ومع الأسف، لا يتعامل الباحثون، عندنا، مع الإطار النظري بهذه الطريقة، مما يجعل جهودهم البحثية تذهب في مهب الريح، فتأتي بحوثهم ليست بحوثا أكاديمية، بل كتابات فقط.

2) وتتأثر نتائج البحث، كذلك، بأدوات القياس، من حيث جودتها، والتأكد من صلاحيتها بأكثر من طريقة من طرق حساب معاملات الصدق والثبات. وإذا كانت أدوات القياس رديئة، من المحتمل أن تؤدي إلى نتائج لا ثقة فيها.

3) تتأثر نتيجة البحث كذلك، بخصائص العينة، وطرق سحبها وحجمها، فالعينات المتجانسة أفضل، والعينات العشوائية أفضل، أما العينات كبيرة الحجم، فليست دائما جيدة، فقد يعتقد الباحث أنه كلما كانت العينة كبيرة الحجم، تكون نتيجة البحث محل ثقة، إلا أنها قد تؤدي إلى العكس. وتمكّن علماء المنهجية من وضع حدود لأحجام العينات لكل منهج بحث علمي. فمثلا؛ لا تتساوى أحجام العينات في كل من دراسة الحالة، والبحث التجريبي، والبحث المسحي ؟

4) تتأثر نتيجة البحث كذلك، بالأساليب الإحصائية المستعملة في معالجة بيانات البحث، فالإحصاء النفسي مصنف إلى : وصفي واستدلالي، والإحصاء الاستدلالي مصنف إلى : معلمي ولا معلمي، ولكل بياناته وشروط استعماله، فإذا خالفها الباحث، كانت نتائج البحث ليست محل ثقة.

5) والقول الفصل، في القضية، أنه : عندما يتبع الباحث فنيات البحث العلمي بطريقة سليمة، فإن أي نتيجة يتوصل إليها تكون سليمة وعلمية.

ما رأي فلسفة العلم، أو الإبستمولوجيا ؟

1) إن الأصل في الظواهر الطبيعية والإنسانية، والخصائص النفسية، الاستقلال عن بعضها، إلا إذا تبين أن بينها ارتباط، والأصل في خصائص الأفراد التشابه والتماثل، إلا إذا تبين أن بينها فروق، وتجرى البحوث العلمية في علم النفس، لمعرفة، هل المتغيران : السعادة والانبساط، مستقلان أو مرتبطان ؟ وهل الذكور والإناث، متشابهون ومتماثلون في مشاعر السعادة أو بينهم فروق ؟

ويتطور أكثر، نظرا لغياب ثقافة الإتقان والجودة، وسيادة ثقافة معاكسة لها، مؤيّدة ومدعّمة، ولا تتغير الأمور في المنظور القريب، ولا أحد يلفت الانتباه إلى هذا الوضع، بجدية مع المتابعة

لغياب التمكن والإلمام، والاهتمام بفنيات البحث العلمي، وثقافته، يتحدث الباحثون عن جوانب أخرى، تتعلق غالبا بنتائج البحث ومدى تحقيق الفرضيات من عدمه، والدلالة الإحصائية.

إن النتيجة المتوصل إليها في نهاية البحث، أيا كانت هذه النتيجة، لا تأتي من فراغ، من المفروض أنها قامت على خلفية علمية منجزة، تستند إليها، وتسترشد بها، وتضيف إليها، فتنميها، وإرهاصات كثيرة، وإجراءات منهجية عديدة

إن أول وأعظم ما تتأثر به نتيجة البحث العلمي، هو مضمون الإطار النظري، أي نظرية البحث، ونتائج الدراسات السابقة

إذا لم يقم بهذا الجهد العلمي، فلا يتسنى له توقع نتيجة معينة، وإذا توقعها فبطريقة متحيزة، ولذا يصاب بصدمة عندما تخالف نتيجة بحثه توقعه المتحيز.

تتأثر نتائج البحث، كذلك، بأدوات القياس، من حيث جودتها، والتأكد من صلاحيتها بأكثر من طريقة من طرق حساب معاملات الصدق والثبات

تتأثر نتيجة البحث كذلك،

بخصائص العينة، وطرق سحبها وحجمها، فالعينات المتجانسة أفضل، والعينات العشوائية أفضل، أما العينات كبيرة الحجم، فليست دائما جيدة

تتأثر نتيجة البحث كذلك، بالأساليب الإحصائية المستعملة في معالجة بيانات البحث

القول الفصل، في القضية، أنه : عندما يتبع الباحث قنيات البحث العلمي بطريقة سليمة، فإن أي نتيجة يتوصل إليها تكون سليمة وعلمية.

إن الأصل في الظواهر الطبيعية والإنسانية، والخصائص النفسية، الاستقلال عن بعضها، إلا إذا تبين أن بينها ارتباط، والأصل في خصائص الأفراد التشابه والتماثل، إلا إذا تبين أن بينها فروق،

هذه القواعد والمبادئ الإبستمولوجية، ينبغي فهمها جيدا، لاكتساب إدراك واسع، وعميق، لطبيعة العلم وفكره.

2) هل نستنتج من هذه القواعد والمبادئ الإبستمولوجية، أن عدم وجود ارتباطات، وعدم وجود فروق هو الأصل، وأن وجودها هو الاستثناء ؟ إنها طبيعة الأشياء، ليس منطقيا : أن وجود وعدم وجود، تكون لهما الأولوية نفسها، والمستوى نفسه، والقوة نفسها.

3) وهل نستنتج من هذه القواعد الإبستمولوجية، نفسها، أن الفرضية الصفرية، التي تقول بعدم وجود ارتباطات بين المتغيرات، وتقول بعدم وجود فروق بين العينات، هي الأصل، وأن فرضية البحث، التي تقول بوجود ارتباطات بين المتغيرات، وتقول بوجود فروق بين العينات، هي الاستثناء ؟ ولذا لا تصاغ فرضيات صفرية، في البحث العلمي، ولا يوجد لنتائج اختبارها ما يقابلها في جداول الدلالة الإحصائية ؟ فالقيم المسجلة في جداول الدلالة الإحصائية، تقابل نتائج اختبار فرض البحث، موجه، بذيل واحد (طرف واحد)، وغير موجه، بذيلين (طرفين).

4) إن المعالجات الإحصائية، تتسق مع التفكير الفلسفي للعلم.

5) هذه القواعد والمبادئ الإبستمولوجية، ينبغي فهمها جيدا، لاكتساب إدراك واسع، وعميق، لطبيعة العلم وفكره.

نعم، ينبغي أن نفكر بعمق، ولا يكون التفكير جيدا ومثمرا، إلا إذا كان الدماغ الذي يفكر مليئا بالمعلومات. اقرؤوا، ثم اقرؤوا، ثم اقرؤوا.

فقبل أن تنزل الآيات القرآنية التي تدعو إلى التوحيد والصلاة والزكاة والصوم والحج، نزلت خمس آيات تدعو صراحة إلى الكتابة والقراءة ودورهما في اكتساب العلم. (الآيات الخمسة الأولى من سورة العلق).

هناك سبب واحد فقط.

إن سبب وقوع الباحثين في حيرة عندما يتوصلون إلى نتائج كمية، فروق وارتباطات غير دالة إحصائيا، ويعتبرون ذلك، فشلا في البحث، يعود إلى الجهل الذي يكاد أن يكون شموليا، بطبيعة الظواهر محل البحث، وبمناهج البحث النفسي وفنونها.

إرتباط كامل النص:
http://www.arabpsynet.com/Documents/DocMaamria-EstablishingWrongResearcHabits.pdf

**** **** *****

شبكة العلوم النفسية العربية

نحو تعاون عربي رقيا بعلوم وطب النفس

الموقع العلمي
http://www.arabpsynet.com/

المتجر الالكتروني
http://www.arabpsyfound.com

الكتاب السنوي 2020 لـ " شبكة العلوم النفسية العربية " (الاصدار الثامن)

الشبكة تطفئ شمعتها العشرون عشرة وتدخل عامها الواحد والعشرون من التأسيس

20 عاما من الكدح... 18 عاما من الإنجازات "

(التأسيس: 2000/01/01 - على الويب: 2003/06/13)

http://www.arabpsynet.com/Documents/eBArabpsynet.pdf